خصائصُ المواطنةِ
وشُروطُها في عالَمِ اليومِ

خصائصُ المُواطنةِ وشئونُها في عالَمِ اليومِ

بولس مطر(*)

أيُّها الأحبَّاءُ.

لِسنتَينِ وَرُبعِ سنةٍ خَلَت، وبدعوةٍ كريمةٍ مِن سماحةِ شيخِ الأزهرِ الشَّريفِ، رئيسِ مجلسِ حكماءِ المُسلمِينَ، الدُّكتور أحمد الطَّيِّب، الَّذي نُحيِّيهِ بِتَحيَّةٍ مَلؤُهَا التَّقديرُ وَالمحبَّةُ والشُّكرُ، عُقِدَ على أرضِ مصرَ العزيزةِ مُؤتَمَرٌ تاريخيٌّ جَمَعَ في القاهرةِ كوكبةً من حُكماءِ الأمَّةِ ومِن القيِّمِينَ ضمنَ مذاهبِها وأطيافِها، وسَطَ جَوٍّ رائعٍ من الانفتاحِ والتَّصافِي والمسؤوليَّةِ.

ولقد صَبَّ المُؤتمِرُونَ جُهُودَهُم في النَّظرِ إلى ما آلَ إليهِ عالمُنا العربيُّ بعد أن ظَهَرَتْ فيه مَوجاتٌ من التَّطرُّفِ والعنفِ الإرهابيِّ بطريقةٍ غيرِ مَسبُوقةٍ وَبِتصرُّفاتٍ غَريبةٍ عن تُراثِهِ الإنسانيِّ النَّبيلِ وقِيَمِهِ الرُّوحيَّةِ الأصيلةِ، أو مُعاكِسةٍ حتَّى لهذا التُّراثِ ولهذهِ القِيَمِ في الصَّميمِ.

وها نحن اليومَ نُلبِّي بفَرحٍ واعتزازٍ هذه الدَّعوةَ الجديدةَ الَّتي رَغِبَ سماحتُه في أن يوجِّهَها إلى جميعِ الإخوةِ المشارِكِينَ، ليتابعَ هذا المؤتَمَرُ عملًا أطلَقَه المؤتَمَرُ السَّابقُ، بتأكيدِه أنَّ الإرهابَ لا يُجابَهُ بالقوَّةِ المادِّيَّةِ وحدَها، بل بالعودةِ الصَّادقةِ إلى تلمُّسِ

هَدي السَّماءِ في تدبيرِ شئونِ الأرضِ، وإلىٰ وضعِ كلِّ أمرٍ من أمورِ الدِّينِ والدُّنيا في موضِعه الصَّحيحِ؛ فلا يُستغَلُّ الدِّينُ مطيَّةً لأيِّ فردٍ أو جماعةٍ، ولا تسيرُ أمورِ الدُّنيا خَبطَ عشواءَ بعيدًا عن العقلِ؛ فيقع النَّاسُ معها في ضياعٍ.

أَمَّا موضوعُ الدِّراسةِ الَّتي وُكِلَ إلينا أَمرُ عَرضِها في هذه العُجالةِ فهو موضوعُ المُواطَنةِ وشُئونُها في ظُرُوفِ عالَمِ اليومِ، كما في مَسِيرةٍ عَرفَتها في تَطوُّرِهَا عَبرَ مَحطَّاتِها في التَّاريخِ.

إِنَّ فكرةَ المُواطَنةِ كما تُشِيرُ إليها الكلمةُ العربيَّةُ الَّتي تَحملُهَا تعني بكلِّ بَساطةٍ أَن يُوَاطنَ الواحدُ الآخَرَ من النَّاسِ؛ أَيِّ أَن يعيشَ معهُ في وَطنٍ واحدٍ ضمنَ المُساواةِ فيما بينهما، وفي جَوٍّ من القَبُولِ المُتبادَلِ؛ فلا يُرفَعُ أحدٌ من المُواطِنِينَ إلىٰ الأَثَرةِ، ولا يُنزَلُ المُواطِنُ الآخَرُ إلىٰ المَهانةِ.

وقد يَكونُ هؤلاءِ المواطِنونَ أفرادًا أو جماعاتٍ، وقد يَنتَمُونَ إلىٰ دِينٍ واحدٍ أو إلىٰ أديانٍ مُتعدِّدةٍ، وفي هذه الحالِ يُسمَّىٰ عَيشُهُم عَيشًا مُشتَرَكًا تَعرفُهُ أُممٌ وَمُجتمعاتٌ عديدةٌ وتُفاخِرُ به إنجازًا حضاريًّا يجبُ تشجيعُهُ والحفاظُ عليهِ.

ننظرُ أوَّلًا إلىٰ المُواطنةِ بين جماعاتٍ ذاتِ انتماءٍ واحدٍ؛ فقد ظَهرَتْ هذه المُواطَنةُ أوَّلَ ما ظَهرَتْ في مُدنِ الحضارةِ الإغريقيَّةِ في القرنِ الخامسِ قبل المسيحِ، وقد جاءت نتيجةَ تَطوُّرِ انتقالِ النَّاسِ في عَلاقتِهِم مع الحاكِمِينَ من وَضعِ «رعايا» للسُّلطانِ إلىٰ وَضعِ جماعةٍ تَتَواطَنُ بِحرِّيَّةٍ بين أفرادِها، وتعتبرُ السُّلطةَ وكالةً يُحاسَبُ أصحابُها علىٰ حُسنِ تَأديتِها أمامَ مُوكِّلِيهِم سَلبًا أَو إيجابًا.

لكنَّ أَديانَ الوَحيِ قد أَكملَت هذه الفكرةَ عندما لَفَتَتِ الأنظارَ إلىٰ أنَّ أيَّ سُلطةٍ علىٰ النَّاسِ تُعطَىٰ أوَّلًا مِن رَبِّ العُلا؛ لأنَّه السَّيِّدُ علىٰ الحياةِ والموتِ، حتَّىٰ ولو كان الشَّعبُ يستطيعُ مُحاسبَتَها باعتبارِ أنَّ صوتَ الشَّعبِ هو من صوتِ اللهِ، ولأنَّ يَدَ اللهِ مع الجَماعةِ.

ومِن الضَّروريِّ التَّذكيرُ أَيضًا في هذا المجالِ بأنَّ الأديانَ هي الَّتي أَبطلَت تلك المَقُولَةَ الرَّائجةَ في زَمنٍ من الأزمانِ، والَّتي كانت تَدَّعِي بأنَّ الأَرضَ وما عليها للسُّلطانِ، أو بأنَّ الأرضَ ومَن عليها هي بِالكلِّيَّةِ للسُّلطانِ؛ فالنَّاسُ مِلكُ ربِّهم وهم ليسوا بعدَهُ مِلكًا لأحدٍ، ولم يَعُدْ مقبولًا بِحسَبِ القولِ المأثورِ أن نَستعبدَ النَّاسَ وقد وَلَدَتهُم أُمَّهاتُهُم أَحرارًا.

ومن المُدُنِ الإغريقيَّةِ القديمةِ انطلَقَتْ فكرةُ المُواطَنةِ إلىٰ المجالِ الأوسعِ، وُصُولًا إلىٰ الأُممِ الكُبرىٰ، تلك الَّتي تَحملُ طابعًا دينيًّا في هُوِيَّتِها وفي حُضُورِهَا.

فالإسلامُ علىٰ سَبيلِ المِثالِ، كما المسيحيَّةِ، هو دِينٌ عالَمِيٌّ، وَانتشارُهُ أيضًا هُو انتشارٌ عالَمِيٌّ يَضمُّ إليه شُعُوبًا مُتنوِّعةَ الأَعرافِ والثَّقافاتِ، وَمُتعدِّدةَ اللُّغاتِ، ولو كان لأهلِها صلاةٌ واحدةٌ وإيمانٌ واحدٌ.

فالأوطانُ في هذه الأمَّةِ أو تلك هي واقعٌ مَلموسٌ، وضرورةٌ من ضَروراتِ الزَّمانِ، أو ظرفٌ من ظُروفِ التَّاريخِ، وتَبقىٰ الوَحدةُ الرُّوحيَّةُ لكلِّ هذه الأَوطانِ قائمةً ومُلهِمةً للجميعِ.

أمَّا شُئونُ الحياةِ اليوميَّةِ فهي في أيدي الشُّعُوبِ والأوطانِ الَّتي تَبقىٰ من صناعةِ التَّاريخِ وحركاتِهِ المُستمرَّةِ بلا حُدُودٍ، علىٰ أنَّ هذا التَّنوُّعَ يفرضُ دَومًا وأبدًا احترامَ جميعِ النَّاسِ والمُساواةَ فيما بينهم في الحقُوقِ كما في الواجِباتِ.

وهل نَنسَىٰ في هذا المَجالِ ما يُعلِّمُ الإسلامُ بأن لا فَضلَ لعربيٍّ علىٰ أَعجَميٍّ - وكلاهما مُسلِمٌ- إلَّا بالتَّقوىٰ؟

خلاصةُ القَولِ هي: أنَّ الاستِعبادَ هو من الجاهليَّةِ، أمَّا المُواطَنةُ فهي تَعبيرٌ لِما يَأمرُ بهِ الوَحيُ في مجالِ العَدلِ والمُساواةِ بين الجميعِ.

هذا في العَلاقةِ بين أبناءِ الدِّينِ الواحِدِ، وفي مُواطَنتِهِم بعضِهم لبعضٍ، فما يكونُ الأمرُ لو نَظرْنَا إلىٰ المُواطَنةِ بين أبناءِ أديانٍ مُختلفةٍ، وبالتَّحديدِ بين أبناءِ المسيحيَّةِ وأبناءِ الإسلامِ؟

حولَ هذه المُواطَنةِ، بين المُسلمِ والمسيحيِّ في أقطارِنَا العربيَّةِ، ولا سيَّما في مصرَ ولُبنانَ وسِواهما، صَدَرَ كلامٌ واضحٌ كلَّ الوُضُوحِ في بيانِ الأزهرِ العالميِّ، بِتاريخِ: الرَّابع من كانون أوَّل ٢٠١٤م، نَنقُلُهُ هنا بِكلِّ أمانةٍ وافتخارٍ: «إنَّ عَلاقاتِ المُسلمينَ مع المَسيحيِّينَ هي عَلاقاتٌ تاريخيَّةٌ وَتجرِبةُ عَيشٍ مُشتَرَكٍ ومُثمِرٍ، ولَدَينا تَجارِبُ يُحتذىٰ بها في مصرَ، وفي العديدِ من الدُّولِ العربيَّةِ الأخرىٰ جَرىٰ تطويرُها باتِّجاهِ المُواطَنةِ الكاملةِ حُقُوقًا وواجباتٍ. ومِن هنا فإنَّ التَّعرُّضَ للمسيحيِّينَ ولأهلِ الأديانِ والعقائدِ الأخرىٰ بِاصطناعِ أسبابٍ دينيَّةٍ هو خُرُوجٌ علىٰ صَميمِ

الدِّينِ، وعلىٰ تَوجيهاتِ النَّبيِّ صلىٰ الله عليه وسلم، وتَنكُّرٌ لحُقُوقِ الوطنِ والمُواطنِ».

هذا المَوقفُ الواضحُ الصَّريحُ لِجهةِ المُواطَنةِ بين المسيحيِّينَ والمُسلمينَ إنَّما تأتي أهمِّيَّتُهُ من كَونِهِ مُستَنِدًا إلىٰ الإسلامِ نفسِهِ، فليس هو رأيًا خاصًّا يأتي به إنسانٌ من تلقاءِ ذاتِهِ.

ويَجدُرُ القَولُ بأنَّ تَسميةَ المَسيحيِّينَ «أَهلَ الكتاب» جاءتْ في آياتٍ كريمةٍ ليس لأحدٍ أن يَنقُضَها، وما وَرَدَ أيضًا عن أقربِ النَّاسِ مَوَدَّةً للَّذينَ آمَنُوا -أي «النَّصارىٰ»- مَن قالوُا: «إنَّا نَصارىٰ»، ليس رأيًا مُتفرِّدًا، بل هو قَولٌ كريمٌ يُلزَمُ المؤمنونَ بهِ إلىٰ يومِ القِيامةِ. فالمسيحيَّةُ إذن هي حاضرةٌ في الإسلامِ منذُ بداياتِ الإسلامِ، وستبقىٰ حاضرةً فيه دون تغييرٍ ولا تبديلٍ.

قد يقول البعضُ: إنَّ تَسميةَ المسيحيِّينَ في القرآنِ «بأهل الكتاب» لا تعطيهم كلَّ حُقُوقِ المُواطَنةِ في دَولةِ المُسلمِينَ، هنا يدخلُ التَّطويرُ لصَوغِ هذه الحُقُوقِ بين ظُرُوفِ الفَتحِ الَّتي كانت ظُرُوفًا خاصَّةً، وبين الحياةِ في دولةٍ قائمةِ المعالمِ والأنظمةِ، وإنَّ أُمورَ الدِّينِ والعقيدةِ لا دَخلَ لها في المُعامَلاتِ اليوميَّةِ بين المُواطِنِينَ، فالنَّبيُّ العربيُّ يُعلِنُ بكلِّ وُضُوحٍ قائلًا: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، وَينبِّهُ المُسلمِينَ أَنفسَهم إلىٰ أنَّ اللهَ يَبُتُّ في بعضِ الخلافاتِ الَّتي يعرفُونها، ولكنْ في يومِ القيامةِ.

وهكذا فالعَلاقةُ الدِّينيَّةُ بين المُسلمِينَ وَالمسيحيِّينَ هي عَلاقةُ احترامٍ مُتبادَلٍ للعقائدِ، واللهُ هو الَّذي يَفصلُ فيها وَحدَهُ ومِن دُونِ شريكٍ، أمَّا في أُمورِ الحُقُوقِ الإنسانيَّةِ وفي مَسيرةِ العدالةِ وإقامةِ القِسطِ بين المُواطِنِينَ فالإسلامُ مُنذُ «الرَّاشدين» قد جَعلَ مِن العَدلِ قِيمةً أَساسيَّةً، وصارَ الخليفةُ عمرُ رَمزًا لهذه العدالةِ المُقامةِ بين النَّاسِ.

وهذه أيضًا أمورٌ قابلةٌ للتَّطوُّرِ في ظُرُوفِ الحياةِ المُستجدَّةِ، وبفعلِ القوانينِ الَّتي تُماشِي الأيَّامَ وتَعكسُ حركتَها، فنُؤكِّدُ باسمِ هذا المَنحىٰ أنَّ دولةَ الإسلامِ هي في أساسِها دولةٌ مدنيَّةٌ، وأنَّ الدَّولةَ الإسلاميَّةَ الكاملةَ هي مُواكِبةٌ لاكتمالِ التَّاريخِ نَفسِهِ، وعلىٰ ما هو -تحديدًا- في خاطرِ اللهِ.

وإنَّ خيرَ ما نَختمُ به كلامَنا في مَجالِ العَيشِ المُشتَرَكِ وَالمُواطَنةِ الكاملةِ بين المُسلمِينَ والمسيحيِّينَ في بلدانِنا هو الإعلانُ بأنَّنا في هذا الشَّرقِ لن نَرضى إلَّا أن يكونَ مُستقبلُنا واحدًا في السَّرَّاءِ كما في الضَّرَّاءِ، فنحنُ -مَعشر المسيحيِّينَ- لن نُفتِّشَ لنا عن مصيرٍ سوىٰ المصيرِ المُشتَرَكِ مع أهلِنا المُسلمِينَ.

أَفلَيسَتْ أرضُنا مَهدَ الدِّياناتِ، وشَعبُنا شَعبَ الأنبياءِ والمُرسَلِينَ؟ فعلينا أن نتحرَّكَ بِاسمِ إيمانِنا وبِاسمِ هذا الإيمانِ وَحدِهِ؛ لِنَجدَ لنا المكانَ اللاَّئقَ تحت الشَّمسِ.

وإنَّنا كمسيحيِّينَ أكثرُ معرفةً بِإخوانِنا المُسلمِينَ من أيِّ جماعةٍ سِوانا في العالَمِ، وسوف نُجاهِرُ أمامَ الكَونِ كما نحن فاعِلُونَ، بأنَّ الإسلامَ هو دِينُ الرَّحمةِ، إلىٰ أن

تَظهرَ الحقائقُ كلُّها، ويُبطلَ كلُّ زَيفٍ، وَيحُلَّ سلامُ اللهِ العادلِ وَالحقُّ في القلُوبِ وفي الرُّبُوعِ. وعلىٰ اللهِ فليتوكَّلِ المُؤمنُونَ.

والسَّلامُ عليكم.